القسم السادس

اللغة العربية

تحمل منهج التفكير الإسلامي

الفصل الأول

عوامل تدهور اللغة العربية الفصحى
تتحول في هذا العصر إلى مواجهة لأحيائها

تحقق لنا مما سبق عرضه مع الإيجاز في الفصول السابقة مدى ما تعرض له العرب داخل حدودهم، ومنذ قرون طويلة بعد إشراق الإسلام من آفاقهم وانتشاره في الأرض بجهادهم وأسوتهم وأخلاقهم لمكائد وأحقاد شعوبية تجمعت بمعتقدات ما قبل الإسلام، فليست الدعوات والصيحات المعاصرة لغواية العرب بالتفلسف الأوربي شرقيًا كان أو غربيًا هي التيار الوحيد باتجاه الارتداد عن الذات العربية، وعن أصالتها في عقيدتها الدينية، بل إن من بين من يزعمون الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، والدعوة إلى الحكم بالقرآن الكريم بعد هجره، متباكين بالحماسة، وخابطين الأرجل مع الولولة – من لا يزالون في عجمة ألسنتهم، وعجمة قلوبهم، وشتات أهدافهم، وشعوبية مصادرهم، يحملون هذا الحقد على العرب تحت قناع زائف من الإسلام أو التمسلم، وهم يجمعون بين النقيضين.. بين الدعوة إلى الإسلام، والزراية والطعن في العرب من قوم الرسول الذين اختارهم الله واجتباهم لرسالة الإسلام، وجعلهم فوق جميع الأمم التي كانت حولهم، وجاءت من بعدهم، خير أمة أخرجها للناس بهذا الإسلام.

وهؤلاء – كما لا يزالون يتخبطون في غيابة هذا الحقد والوهم – يجمعون بين القول بحي الرسول، أفضل البشر وخاتم النبيين، وبين الطعن بقومه الذين أسلموا عن بينة، وآمنوا عن يقين، وهم قومه الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، بما لم تسبقهم إليه أمة جاءها رسول منها، وبما لم تلحق بهم إلى مثله أمة، بعد أن دخل الترف، ونشط الدفين، ونزغ الشيطان من بعدهم في قلوب المسلمين..

إنهم يطعنون فيهم، وكأن صدق إسلامهم لم يشفع لهم لأنهم عرب، وكأن أخلاقهم ولغتهم وحكمتهم وبقية دين إبراهيم بينهم خلال خمسة

وعشرين قرنًا قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لا تشفع لهم. ولا اصطفاء الرسول من بينهم، أي أنه بنص القرآن الكريم، وحديث الرسول، وواقع التاريخ هو «المصطفى» بين من اصطفاهم الله، أي أنه الأفضل بأخلاقه وشيمه بين أهل الفضل من قومه بأخلاقهم وشيمهم، وإلا فكيف كانت تتم آية الله ونعمته على هذه الأمة بإسلامها، مستجيبة لرسول منها، ومؤمنة بكتاب مبين نزل إليها بلسانها، لو لم يكن صحابة الرسول الراشدين، ومن حملوا الأمانة من بعده، أهلًا بأخلاقهم وفضائلهم لشرف إتباعه، وفضل مؤازرته، وحق الشهادة على الناس من بعده، أئمة لهم وقادة، ومعلمين لهم وأسوة!؟

أو ليس من العجب أن يجد هذا الحقد الأهوج على العرب من ينق بنقيقه إلى اليوم، وفي قلب بلادهم، وباسم الإسلام، وبرغم إحاطة أعداء المسلمين بهم، سواء من الشيوعيين أو الاستعماريين..!؟

أو ليس من البطر، والافتراء على الله، والعداء لرسول الله، ألا يزال الحقد الشعوبي الفلسفي يأكل قلوب هؤلاء الممسوخين به، والمرهقين بقترته، وهم يمضغون مرارات الغيظ والحسد لأن الله اختار العرب لأعظم آياته، وأبقى رسالاته، متجاوزًا بعلمه وحكمته فارس والروم، وتركيا والهند، من أول رسالات الدين الحق إلى الرسالة الخاتمة والباقية منها إلى اليوم؟

لقد اختارهم بتعريب لسانهم لتدبر القرآن، وجعلهم بذلك الشهداء على كل من الروم والفرس، ومن الترك والهنود، وغيرهم، لأنهم الأئمة والدعاة والأسوة.. فأين هذا الحق الأبلج من غشاوة الباطل على وجوه الشاردين به؟

يقول الله سبحانه من أن نزول القرآن على رسول الله بلسان قومه المبين هو ذكر باق بالحسنى له ولهم في العالمين ببقاء هذا الكتاب المبين:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزُّخرُف:44]

ويقول سبحانه في نفس المعنى وهو يظهر فضله على العرب من قوم النبي الذين نزل عليهم القرآن بلغتهم ففقهوه وتدبروه وآمنوا به:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء:10]

وأما عن عداء هؤلاء لرسول الله الذين يتصايحون بحبه بينما يطعنون فيمن اصطفاهم الله لهذا الدين من قومه، فإلى أن يحين يوم البعث والحساب، نذكرهم بصحيح قول الرسول وهو يحمد الله على نعمة اصطفائه لأعظم رسالة، وأبقى حجة، وأقوم دين، وذلك حيث يقول عن مكارم الأخلاق والخصائص لآبائه وأمهاته، وهم العرب من قريش حتى إسماعيل وإبراهيم:

«لم يزل الله ينقلني من الأصلاب النقية إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

أي أنه كما قال من معنى حديث آخر هو: خيار من خيار من خيار.. ومن معنى حديث ثالث عن أن من أحب العرب فبحب محمد رسول الله أحبهم، ومن أبغضهم فببغضه لرسول الله أبغضهم.. فأين يذهب هؤلاء المبغضون للعرب.. وإلى أي ضلالة يهرعون.. وفي أي حمأة من الحقد والبطر على نعمة الله بالإسلام ينقون.. وها هي ذي شمس الإسلام تشرق على العرب بصحوتهم إلى الدين الحق في كتاب الله.. وأسوة رسول الله.. تشرق كما كانت من آفاقهم، وكتاب الله إليهم..!؟

الترف والتخلف:

والآن نمضي لنقول أنه إذا كانت هذه السلسلة من الصحوات العربية بين شعوب العرب هنا وهناك، لم تحقق بعد.. هذا الشروق الكامل لأمة الوحدة ولا لحضارة الإسلام مرة أخرى.. باتساع الأرض، فما ذلك إلا لأن هذه الشعوب في جملتها لا تزال – برغم ما أفاءه الله عليها من وفرة النعم الموروثة والحديثة – تعاني من محنتها من الجمع بين الترف والتخلف، في مواجهة هذا العدوان المتسلسل إليها بالغزو الفكري، والمحدق بها بالتهديد العسكري، كما وضح ذلك تمامًا بعد اجتياح القوات الروسية لأفغانستان، وارتفاع درجة الحمى في الصراع الدائر بين العملاقين الجشعين على السيطرة، واحتلال المواقع، وانتهاب الموارد، فوق أرجاء الأرض، وبرغم الإدعاء التمويهي بحقوق الإنسان، وحريات الشعوب..!

ولقد كان لهذا الترف والتخلف معًا بضغطهما على أنفاس العرب، وتعويقهما للمسيرة الراشدة بصحوتهم، أثرهما المتغلغل بالشتات، والمتسرب بالعجمة إلى اللسان العربي، مما كان له أسوأ الأثر منذ بدايات أعراضه في نهاية العصر الأموي. فمثل هذا الترف في العيش، وهذا المتاع المحرم، وهذا السقوط إلى الاستمتاع بنفايات ما عرفته الحضارات الفارسية والبيزنطية من اللذات الشاذة، كان لابد أن تتسرب آثارها وصورها المختلة إلى اللغة العربية لتتهجن بأصواتها، ولتستعجم بمعانيها، ولتندفع بأيدي الهوى لتنتقل مما لا يحل لها بوصايا الدين والحق والمعروف، إلى ما يحل بها بغوايات الضلال والإسراف والاحتضار..

مثل هذا الترف، وما يستتبعه دائمًا من الانقسام بين المؤتلفين، والتخلف في مسيرة المتقدمين، كان هو الإغراء الدائم لهجوم أعداء العرب عليهم، من الطامعين منذ القدم فيما أنعم الله به عليهم من اعتدال مناخ

أرضهم، ووفرة مواردهم، وحصانة ثغورهم، وعالمية طرقهم التجارية في قلب الأرض المحيطة بهم. ومع تعدد هذه الحروب التي كان يشنها عليهم هؤلاء الأعداء المتربصون بهم، فإن العرب كانوا سرعان ما ينهضون بصحواتهم حول مقوماتهم، من الدين واللغة، ومن التراث والأخلاق، ليتحدوا بالعزيمة الصادقة في وجه أعدائهم، ولينتصروا دائمًا عليهم بما كتبه الله لهم من وعده الحق بهذا النصر تحت راية القرآن، والتجمع بقوة الإيمان.. أي بقوة العمل والعلم في ضوء هذا الإيمان..

وكما أثبتت كل الصحوات السابقة للأمة العربية في وجه أعدائها بالإيمان، فإن أول الانتفاض من الغفوة، والرجوع إلى المقومات بعد الغفلات، كان البدء بتقويم الألسنة عن عجمتها، سواء باللفظ أو بالمعنى، وبذلك تنفتح مع صحة اللسان العربي كل الطرق الصحيحة إلى تدبر القرآن الكريم.

وحتى نسوق مثالًا على مدى ما يصنعه تسرب العجمة إلى الألسنة العربية من قلب للمعاني المحكمة في تدبر القرآن الكريم، مما تتهدم بقلبه عن صورته في ضوء البيان العربي السليم، أكثر دعائم الدين الحق في وعي المؤمنين، وثقافتهم، وفي تصورات مسيرتهم وأعمالهم، وحتى ندرك فداحة هذا الاستعجام لمعاني الكثير من كلمات القرآن الكريم السائدة فيه، بما يقلبها إلى النقيض من معناها الذي نزل به الوحي، والذي تدبرها به على الوجه الصحيح في اللسان العربي المبين رسول الله وصحابته الراشدين.. نضرب مثلًا واحدًا في كلمة «المعجزة» التي قلبها المستعجمون عن معناها الصحيح منذ أواخر القرن الثاني للهجرة فجعلوها بقلب معناها مساوية لكلمة «الآية» أي ما جاء من الآيات والبينات على أيدي الرسل، وقد امتد هذا القلب للمعنى الصحيح لهذه الكلمة بكل أخطاره على

الفكر الإسلامي، واللسان العربي، والتدبر السليم للقرآن الكريم، حتى هذا العصر الذي نعيش فيه، فلم يكد يسلم من هذا التحريف الجائر بقلب المعنى كتاب من كتب التراث، أو تفسير من كتب المفسرين..!

أما البداية إلى تعظيم وتعميم هذا العجز في فهم كلمة «معجزة» على أنها هي «الآية» فكانت فيما أعلنه أحد علماء الأعاجم عبد القاهر الجرجاني، الذي كتب في القرن الخامس الهجري كتابه المتعثر في فهم القرآن الكريم بعنوان «دلائل الإعجاز»، ولقد سار في هذا الكتاب برأيه في معنى «الإعجاز» على آثار من قبله، ومن هم على شاكلته في هذا الاختلاط بالعجمة عن الصحيح من لسان الوحي، من أمثال عبد الله بن زيد الواسطي من القرن الثالث الهجري، وأبو عيسى الرماني من القرن الرابع، وقد مضى هذا الخطأ المنكر حتى توهم مثل هذا الكاتب العربي الغيور على العربية الفصحى مصطفى صادق الرافعي، فلم يفطن في عجلته من أمره، وفي كثرة المتربصين بالعربية من حوله في عصرنا الحديث، إلى الخطأ المتواتر بعجمة الألسنة في دلالة هذه الكلمة، وفهمها على أنها تساوي معنى «الآية» أو «البينة» من الله على صدق الأنبياء، فكتب كتابه «إعجاز القرآن»..!

لقد توهم هؤلاء ومثلهم جميعًا هذا الوهم بسبب هذا التسرب الدائب للعجمة الخفية والظاهرة إلى حياة العرب المسلمين ومعاني كلماتهم، فحملوا معنى الآية على معنى المعجزة، وغفلوا بذلك عما ينقض هذا الوهم من هذين الأمرين الواضحين للمؤمن المتبصر في القرآن الكريم:

الأمر الأول أن الله سبحانه وهو الخالق القادر، والحكيم العليم، الذي يعلم ضعف عباده عن سلطان قدرته، والذي يرحمهم بدعوتهم إلى طاعته، بينما هو يذكرهم بالكثير الموجب للشكر من نعمه – أن الله

سبحانه بكل كمال القدرة، والرحمة، والتذكير بالنعمة، لمن هم عباده وخلقه والمهتدون به إليه – يتنزه بهذه الصفات الحسنى عن أن يعاجزهم، وأن يؤيد رسله بالآيات ليعجزهم، وأن يتنزل بالوحي والقرآن المبين على رسوله ليبهتهم ويخرسهم، لا ليذكرهم من غفلتهم إلى الحق الذي غفلوا عنه ويهديهم..!

الله القوي إذن لا يعاجز عباده الضعفاء عنه، وإنما هو بآياته، أي بهذه «العلامات» الدالة بصدقها وبرهانها عليه، يذكرهم في ضوئها المشرق، ومع صراطها المستقيم، بهذا الحق الذي يعرفونه وغفلوا عنه، وهو في هذا يقول سبحانه في واحدة من هذه الآيات الكثيرة الدالة على هذا المعنى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:89] أي يظهر لكم العلامات على أن هذه الرسالات من عنده لعلكم تتذكرون فتشكرون وتهتدون.

والأمر الآخر هو أن المعنى السائد لكلمة «المعاجزة» في اللسان العربي المبين يقطع بأنها لا تكون من القوي الحليم القادر، لأنها دائمًا هي شأن الضعيف المغتر المكابر، وقد خص القرآن الكفار وحدهم – وقبل أن يؤمن أكثرهم – بهذه الصفة اللائقة بهم من إدعاء القدرة على «المعاجزة» مع العجز، وذلك حيث وردت مادة الفعل: عاجز – يعاجز – تسع عشرة مرة وردت كلها في كتاب الله، وبغير إبهام، من نصيب الكفار وحدهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:32] .. ومثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[النور:57] .. ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة:3].

على أن الله تعالى في حجة القرآن البالغة على من غاصوا في أوهام الاستعجام لا يترك هذا الفارق يتسع بين الآية والمعجزة إلى حد التضاد بغير بيان قاطع، وبرهان مرشد، فهو سبحانه يجمعهما في آية واحدة تشرق بمعنى هذا التضاد المبين بينهما، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الحج:51].

فكيف يمكن بعد ذلك، وقبل ذلك، أن تكون آيات الله موجهة لمعاجزة عباد الله، وليس لهدايتهم رحمة بهم، وإيقاظًا لعقولهم السليمة، وفطرتهم السوية، سواء أكانت هذه الآيات حسية مثل إحياء الموتى بإذن الله على يد المسيح، أم عقلية بيانية دائمة مثل آيات القرآن الكريم..؟

كيف يمكن أن تكون آيات القرآن الكريم موجهة لتعجيز من أعدهم الله بحكمته، ورحمته، وسابق وعده، وأزلية علمه، للإيمان به، والإسلام إليه، وحمل الأمانة في الأرض بالدعوة لدينه، والأسوة بأخلاق كتابه، وهو سبحانه القائل من أن هذه الدعوة بالقرآن الكريم كانت لمن رفعهم بنعمته إلى مستوى تدبرها والإيمان بها، رحمة ونورًا، وهدى وتطهيرًا، وإحياء من الموت بالغفلة وكفر النعمة ونشورًا..!؟

أو ليس الله هو القائل سبحانه في مثل هذه المعاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾[النساء:174].

وهو سبحانه القائل: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة:6]. وهو سبحانه القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[الأنعام:122].

فهذه كلمة واحدة من كلمات كثيرة وقع بها بتسرب العجمة ونشاطها هذا القلب المشين للكثير من محكمات المعاني في كتاب الله المبين، وهي كافية في دلالتها على وجهة من نشطوا بها في عمايتهم إلى واحد من أقبح أهدافهم، وهو إذكاء الحقد على العرب، والزراية بهم، حسدًا من عند أنفسهم، وعقوقًا لسابق فضلهم عليهم، ورجعة إلى الباطل من معتقدات لآبائهم كانت وبالًا عليهم في جاهلياتهم الوثنية قبل الإسلام، ولا تزال وبالًا على خلفهم في مذاهبهم المنحولة والمدخولة التي لا تزال تعوق طريقهم القويم إلى صدق الإيمان والإسلام..

وإلا فكيف يستقيم طريق هؤلاء إلى الهدى، بتدبرهم للقرآن، وبوعيهم للآيات، إذا ظلوا مصرين – كما لا يزال أكثرهم إلى اليوم – على أن الغاية الأولى للوحي والتنزيل في كتاب الله المبين إنما كانت «تعجيز» العرب بيانيًا.. وليست – كما هو الحق، وكما هي شهادة القرآن الكريم – مواجهتهم وتذكيرهم بما هم أهله بإتباع هذا الحق الذي غفلوا إلى حين عنه.. ومن أجل هدايتهم به إلى برهان الله فيه على صدق الوحي، وصدق الرسالة، ووجوب الشكر.. بصدق الإيمان..

ثم لا يزال الطريق مفتوحًا.. والنور ساطعًا.. والصحوة جادة.. لهذه الأمة العربية في هذا العصر بين يدي كتاب الله.. لتعود إلى تدبره بالقلوب المفتوحة، والعقول الواعية، واللغة المبينة.. إن شاء الله.

الفصل الثاني

تاريخ الدعوة بين العرب إلى العالمية

وموجز عن آثارها وهزيمتها في مصر

ونمضي مع تباشير هذه الصحوة العربية إلى إلقاء الضوء بصورة عامة على المخطط العدواني لتقويض أحد مقومات الدين الحق، والصحوة الكاملة، وهو اللغة العربية القرآنية الفصحى، والتي لا تزال تتعرض منذ غلبة الاستعمار على الوطن العربي للعديد من الأنشطة الخفية أو السافرة لتهجينها بالعربية، أملًا في تقويضها، وقطع ألسنة المتكلمين بها، كما حدث للجزائر بعد محنتها الطويلة جدًا بالاستعمار الفرنسي..

وفي هذا الفصل نقدم هذا الموجز من كتاب السيدة الفضلى، المستنيرة بعلمها، والمجاهدة عن دينها وقوميتها، الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، الأستاذة بكلية آداب جامعة الإسكندرية، وعنوانه: «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» وذلك حتى يتحقق استيفاء هذا الجانب التاريخي لأزمة الأمة العربية لغويًا، وفي هذه المرحلة الأخيرة من هذه الأزمة، حيث تلاحق في العصر الحديث تفجير مخططات الدعوة إلى «العامية لغة أساسية» وإلى استعمال الحروف اللاتينية الأوربية بدلًا من كتابة اللغة العربية بحروفها العربية التي نشأت معها منذ آلاف السنين، وقبل أن يفتح الأوربيون أعينهم – منذ قرون معدودة – على الكتابة والقراءة بأحرفهم، المستمدة بقصور من أصلها العربي..!

تقول السيدة الفضلى في كتابها المذكور الذي صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف سنة 1384 هجرية وسنة 1964 ميلادية:

«إن وجود اللهجة العامية بجوار اللغة الفصحى – على ما بينهما من اختلاف – ظاهرة طبيعية في كل اللغات، ولكن الغريب والخطر، بعد مرحلة الاستعمار الإنجليزي، أنه بعد أن ازدادت الأدواء التي طرأت على اللسان العربي من أثر اللحن والتحريف والدخيل، وبعد أن كان علماء اللغة يتجهون إلى كلام العامة محاولين إصلاحه لا تدوينه، أن ظهر في عصرنا

من حاولوا اعتبار وجود الفصحى والعامية معًا مشكلة يرجعون بأسبابها إلى تأخر أبناء العربية، ويقترحون في حل هذه «المشكلة» طرح العربية التي لا تصلح في نظرهم للحضارة والثقافة المعاصرة، واتخاذ «العامية» لغة للأدب والكتابة حتى تكون لنا لغة واحدة للحديث والكتابة. ولئن كانت هذه الدعوة غريبة تمامًا في هذا العصر الذي يعتبره العرب عصر إحياء للغة العربية، وتحقيق أمل العرب في وحدتهم القومية بهذا الإحياء اللغوي، إلا أن هذه الغرابة تزول إذا عرفنا أن مصدر هذه الدعوة أجنبي، كما اتضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت دراسة اللهجة المصرية، وخاصة ما كان منها في أوائل عهد الاحتلال الإنجليزي لمصر».

وبعد أن أشارت الباحثة الفضلى إلى عدد من الكتب الأوربية التي ظهرت بعد الاحتلال الإنجليزي بالدعوة السافرة إلى تنشيط نشر العامية في مصر لغة واحدة للكلام والكتابة مثل ولهلم سبيتا الألماني الذي كان مديرًا لدار الكتب المصرية، وكارل فولرس الألماني وكان أيضًا مديرًا لدار الكتب، وسلدن ولمور الإنجليزي وكان قاضيًا بالمحاكم الأهلية بالقاهرة – تناولت بالإسهاب نشاط المهندس الإنجليزي وليم ولكوكس الذي كان مهندسًا للري بالقاهرة، والذي نشر أول وأعجب كتاب يفتتح به معركته الاستعمارية في حرب اللغة العربية، وإفراد اللهجة العامية المثخنة بالعلل العضوية والطفيلية، على أنقاض العربية، وكان عنوانه كتابه الغريب والوقح هو «سورية ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية لا العربية».

ويعلن ويلكوكس من خلال كتابته عن كراهيته العرقية والشعوبية للعرب الذين هم في نظره أولئك الذين «أسقطوا دولة أجداده الرومان، وحرروا الوطن العربي في مصر والشام من مظالمهم وآثامهم

ومخازيهم، والذين هم في نظره أيضًا بهذا المنطق الاستعماري غير الأخلاقي، وبمثل منطق الشعوبيين ممن دخلوا مع كراهية العرب في الإسلام – «كسالى، وقتلة، ولصوص، وقطاع طرق..» وهي أوصاف أقل كثيرًا – مع براءة العرب منها – مما يوصف به الاستعمار في الواقع، وفي حكم التاريخ، برغم ما يضعه على وجهه من قناع المخادعة والتمويه أمام الشعوب التي يعمل على افتراسها..!

وقد بلغ الحمق بهذا المهندس الإنجليزي الاستعماري كما تروي الدكتورة نفوسة زكريا سعيد في كتابها من أخباره، أنه قام بترجمة قطع من روايات شكسبير إلى «العامية»! والغريب أنه نشرها في المكان الذي اتخذه كما تقول المؤلفة الفضلى «مسرحًا للدعوة إلى العامية» وهو مجلة الأزهر..!!!

وبرغم أن خيبة هذا الأفاق والقرصان اللغوي الإنجليزي كانت «واسعة» في هذه المحاولات الحمقاء التي فشلت أمام عينيه الحاقدتين، فإنه استمر يمارس حماقته المفضلة بحقد بالغ أكل كبده، وشوى لسانه، وذلك حيث قفز إلى محاولة ترجمة الإنجيل إلى العامية، وعلى سبيل المثال ترجم من العهد القديم من سفر «مزامير» أول ما جاء فيه من قوله:

«طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس».

فكانت ترجمته العامية المناسبة لحماقته كما يأتي:

«يا بخت الراجل اللي ما مشاش في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة ما وقفش وفي مجلس المستهزئين ما جلسش»!!!

ثم تتناول المؤلفة الفضلى تاريخ التشجيع لاستعمال العامية في المرحلة السابقة للاستعمار الإنجليزي والتي مهدت لها في عهد خلفاء محمد علي فتذكر «رفاعة الطهطاوي» الذي كان من أوائل من قالوا بضبط العامية، ومن دعوا إلى كتابة الكتب بها، وذلك على أثر عودته من بعثته إلى أوربا..

ثم تذكر اليهودي الصهيوني يعقوب صنوع صاحب مجلة «أبو نظارة» و ج. زنانيري صاحب مجلة الغزالة، ومحمد النجار صاحب مجلة «الأرغول» وقد بدأت هذه المجلات مرحلة تنشيط فن الفكاهة بوصف أن ذلك أقرب وسيلة لنقد الكثير مما يجري من المفارقات والمظالم في عهد الخديو إسماعيل...!

وتمضي المؤلفة الفضلى في سردها التاريخي حتى تصل إلى سلامة موسى الذي يكشف عن وجهه القبيح في كراهية الفصحى، والاستماتة في محاربتها، وهو يقول عنها بالكذب والتضليل لخدمة الاستعمار: «اللغة التي لا نزال للآن نرطنها رطانة، ولم تتشربها بعد نفوسنا، ولا أمل في أن تتشرب بها لأنها غريبة عن مزاجنا»!!.. ثم يكرس كل دهائه في تأييد دعوة الاستعمار بتعميم العامية وحدها في مصر..!

ثم يأتي موقف أحمد لطفي السيد فيكتب في «تمصير اللغة العربية» من حيث أن المصريين في نظره القاصر، وفي هواه الشعوبي ليسوا عربًا، ومن حيث أن «العامية» كما يراها هي اللغة المفضلة للمسرح عند الخواص في عمومهم والعوام»..!!

ثم يلحق بهؤلاء عاميون جدد من أمثال: محمود تيمور، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم، ودعواتهم مشهورة في تشجيع العامية ومحاولة إزالة الفصحى!!

ثم أصابت العدوى حتى العلماء المتخصصين في دراسة الفصحى من أمثال سليمان محمد سليمان أستاذ اللغة العربية في مدرسة المعلمين العليا، والذي ألف كتابه «العامية في ثياب الفصحى» ليتحدث عن بلاغة العامية وأمثالها وخصائصها..!

ثم يظهر عبد العزيز فهمي باقتراحه الهدام لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، والذي تقدم به إلى مجمع اللغة العربية في الجلسة التي عقدها في 3 مايو سنة 1943، ولئن لم يكن عبد العزيز فهمي أول داعية إلى مثل هذا الاقتراح إلا أنه كان أول من استغل مكانته في بذل جهود متواصلة لقبول اقتراحه الغريب والمستهجن، والذي أثار عليه السخط حتى بين ذوي قرباه..!

ولا تنسى المؤلفة الفضلى أن تشيد بهذه المرحلة التي أعقبت هذا الغثاء من حماقات وتأوهات مرضى العامية الذين ركعوا بغير حياء في خدمة الدعوات الأجنبية الاستعمارية في حرب اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن والعلم، والأصالة والوحدة، فهي تتحدث بالتقدير عن هذا الظهور المضيء للشعراء الكبار الثلاثة في أحسن تعبير عن وحدة مصر الوطنية، والتاريخية، والحضارية حول لسان القرآن الكريم، وهم شوقي وحافظ ومطران رحمهم الله.. فكان هذا إرهاصًا بهزيمة تلك الأصوات العاوية والغاوية في الظلام بأملها الكاذب في أن تحقق للاستعمار المتربص هواه القديم في بعث رفات العامية، وبث أمراضها وعللها في أوصال شعب مصر لتخمد جذوته ويستكين، على حساب حياة الفصحى، وإشراق شمسها، وصحوة الآمال بها نحو الدين والوحدة، والعلم والتقدم..

وتختتم المؤلفة الفضلى كتابها القيم والممتع، وبعد تفاصيل عديدة، وملاحقات ذكية، بما تقرره بعد دراستها العلمية الفاحصة من هذه

الحقيقة المشرقة إشراق الشمس في سمائها الصافية، وهي انتهاء هذه المعارك الطويلة المتنوعة «إلى هزيمة العامية، وانتصار الفصحى» التي تمضي بهذا النصر على الطريق المفتوح أمامها، نحو تحقيق الأمل الكبير للعرب في وحدتهم تحت أضوائها، وذلك حيث تقول:

«إن الحملة التي قام بها كل هؤلاء على اللغة العربية الفصحى، والتي هدفوا بها إلى القضاء عليها، لم تستطع أن تنال منها، وإنما دفعت كثيرًا من أبنائها إلى القيام بأبحاث قيمة للذود عنها، مما كان له الفضل الكبير في الكشف عن أسرار العربية الفصحى، ودقائقها، وبيان عراقتها، وقدرتها على مسايرة الحضارات في مختلف العصور».

ثم تقول:

«إن كل ما تركته هذه الدعوة للعامية من آثار في اللغة والأدب هو هذا الترجيح لكفة الفصحى على العامية، وهذا الوضوح النظري والعملي لحقيقة كل منهما».

ثم تقول:

«إن غلبة الفصحى على العامية لم تكن نتيجة لما للفصحى من اعتبارات دينية وتاريخية وثقافية فقط، بل لأن التجربة هي التي ردت لها اعتبارها، ولهذا فإن الرأي العام متجه إلى التمسك بالفصحى، بقدر ما يقويه نحو الوعي القومي، وازدياد عوامل التواصل بين البلاد العربية، وانتشار التعليم. والأدلة على تمسك الرأي العام المصري بالفصحى لا حصر لها، ونلمسها في ميل رجل الشارع إذا خاطب المثقفين إلى تهذيب عبارته حتى يدنو بها من الفصحى»

ثم.. وكأنها تلخص هذه الحقيقة المشرقة التي مرت بمعالمها وظواهرها في دراستها التاريخية لتاريخ الغواية الطارئة بالدعوة إلى العامية.. أي هذه الحقيقة بانتصار الفصحى، وأنها على الطريق الواسع لمزيد من الانتصارات، بقدر المزيد من الصحوات.. فهي تقول في عبارة جلية مضيئة:

«إننا على ضوء كل هذه الحقائق يمكن أن نقرر فشل الدعوة إلى العامية، بعد أن أثارت الكثير من مشاكلنا اللغوية والأوربية طوال هذا القرن.. لقد فشلت حقًا هذه الدعوة الجانحة التي بدأت بالثورة على الفصحى.. وانتهت بالثورة لها»..

ومن هنا ينفتح أمامنا الطريق إلى ملخصات أخرى لأمثلة من هذا الأبحاث اللغوية الجادة، في مجال التعريف بالفصحى، والدفاع عنها، والتنوير بخصائصها الحية، والمتجددة، في بناء وحدة الفكر، ووحدة المنهج، ووحدة المجتمع، في حياة العرب المعاصرين.. كما كان بأجلى صوره، وأكرم واقعه في حياة العرب الأولين.. كما نقدم هذه الملخصات بأقلام عدد من علماء اللغة المعاصرين في الفصول القادمة إن شاء الله.

الفصل الثالث

تدهور مستوى المتكلمين باللغة العربية

الجذور القديمة والمعاصرة للمشكلة والمخرج منها

ونبدأ في هذا الفصل بنقل مقتطفات متكاملة من دراسة حول اللغة الفصحى ومشكلاتها لعالم اللغة المصري المتخصص الدكتور محمد رشاد خليل والأستاذ حاليًا بجامعةالرياض، وقد سبق له نشرها سنة 1397 هجرية وسنة 1977 ميلادية في الجزء الخامس من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» الذي تصدره للعاملين بها شركة «المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان» .. إنه يقول من تاريخ هذه المشكلة:

تاريخ المشكلة:

«إن مشكلة تدهور مستوى المتكلمين باللغة العربية في النطق بهذه اللغة مشكلة قديمة ومزمنة، وهي مشكلة سابقة على العصر الحديث، وعلى خطط الاستعمار لإضعاف هذه اللغة بأزمان طويلة نردها إلى بداية القرن السادس الهجري، وإلى ظروف حضارية وثقافية وسياسية خاصة بالوطن العربي والعالم الإسلامي».

«ويمكن القول بأن الدراسات اللغوية قد توقفت عن النمو، وبدأت مرحلة التدهور منذ ذلك التاريخ، أي بعد أن فقدت الفاعلية العربية داخل تيار الحضارة الإسلامية قدرتها على التأثير والتوجيه والسيطرة. فلقد توقفت الجهود التي تبذل لخدمة اللغة العربية بعد القرن الخامس الهجري عند أعمال هامشية في مجالات الشرح والتعليق، والتحقيق والتصويب..»

«وأما الأعمال المبتكرة التي يفيض بها الذهن المبدع فقد قضى عليها ظهور العنصر التركي على ساحة السياسة، واستبداد قواده بأمر الخلافة، مع ضيق الأفق في الفكر، وقلة الحماسة للعلم. وقد ظلت هذه الظاهرة تستشري باطراد في الوطن العربي والعالم الإسلامي يومًا بعد آخر، حتى انتهت آخر الأمر إلى إعلان ما سموه قفل باب الاجتهاد، وكان معنى ذلك

ببساطة إضفاء الشرعية على «التقليد» والتماس النجاة إلى جوار هشيم «المحفوظات» التي بردت حرارتها، وفقدت معانيها، وضاعت دلالالتها، وحيث اضطرت الأجيال العاجزة عن مواصلة المد العلمي، وتصحيح المسار الثقافي والحضاري والسياسي – إلى أن ترفع هذا الشعار المهيض الأجنحة وهو: «من قلد عالمًا لقى الله سالمًا»..؟؟!

ثم يقول الدكتور محمد رشاد خليل:

«ومن البداية فقد نشأت دراسة اللغة العربية الفصحى من كل وجوهها علاجًا لظاهرة كان يخشى منها على اللغة، وعلى صحة حفظ القرآن الكريم، وهي ظاهرة «ذيوع اللحن» التي أعتقد أنها تجاوزت المفهوم المبسط لها وهو مجرد الخطأ في ضبط أواخر الكلمات إلى جملة من الأخطاء اللغوية والصوتية التي شاعت على ألسنة حديثي الإسلام من الأعاجم، والذين كانوا ينطقون العربية على مقتضى الأعجمية الفارسية أو اليونانية أو غيرهما من اللغات الآرية التي تعجز عن نطق عدد من حروف العربية المميزة لها مثل «الضاد والطاء والحاء والعين والقاف» وكانت هذه الأخطاء الصوتية التي أصابت عدواها مع الزمن بعض العرب إلى جانب أكثر الموالي، مثار تندر ورواية تناقلتها كتب الأدب مثل «الأغاني»، كما ظهرت شخصيات شهيرة تلتصق بها هذه النوادر المضحكة في ألوان اللحن، وصور التدهور في نطق العربية في القوالب الصوتية الأعجمية، مثل ابن عطاء السندي أو سعد الزندخاني وكثيرين غيرهما في هذا المجال..!»

«كذلك امتدت هذه الأخطاء اللغوية من ضبط أواخر الكلمات على الحركة الإعرابية، ومن الخلل بمقتضى العجمة في محاكاة النطق الفصيح بالعربية إلى التحريف الذي تتعرض له بنية الكلمة العربية، وصيغ تصريفها، وإلى أنواع مبتكرة من الأخطاء النحوية تتعدى حركة الإعراب.

هذا إلى الخطأ الذي يتكرر بالسلائق الأعجمية وهو الجنوح إلى استعمال الكلمة الأجنبية دون الكلمة العربية التي لها نفس المعنى أو ما هو أتم منه، وهي أخطاء تبدأ كلها من مباني الكلمات، وقوالبها الصوتية، ثم تنتهي غالبًا إلى تحريف لمعاني الكلمات لم يكن في الأصل مقصودًا لذاته..»

«يضاف إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه من غلبة المنطق اليوناني على منهج الفكر العربي الإسلامي، وعلى المباحث العربية الإسلامية، حتى رأينا النحو واللغة والفقه في العصور المتأخرة يغلب على الكثير منها ركاكة الأسلوب، وفساد العبارة، وكأنها قد كتبت بلغة أخرى غير العربية».

الاستعمار واللغة:

وتحت هذا العنوان يمضي الدكتور محمد رشاد خليل في هذه الدراسة لتاريخ تدهور اللغة العربية في ألسنة المتكلمين بها اليوم فيقول:

«وحين دخل الوطن العربي محاق الاستعمار الغربي تعرض على الفور لحملته المخططة في كل اتجاه للقضاء على اللغة العربية، وذلك لقطع الصلة الباقية بين المسلمين والإسلام، والإجهاز على شريان الحياة الذي يربطهم بتراثهم الخصب، وتاريخهم الحي، وإزالة معالم شخصيتهم القومية والتاريخية حتى يسهل على المستعمر إحكام السيطرة عليهم، وتفريق كلمتهم، وإنهاء الأمل في وحدتهم، وفي استمرار وجودهم التاريخي والحضاري والثقافي في هذا العالم..»

«ولقد أدركت القوى الاستعمارية وهي تبلغ ذروة القوة المادية في الوقت الذي بلغ فيه الوطن العربي والعالم الإسلامي آخر مراحل الضعف

والتخلف – أن مصدر قوة المسلمين بالإسلام هو القرآن الكريم، وأن الطريق إلى القرآن الكريم في حياة العرب والمسلمين ليتدبروه ويعيشوا أحكامه وأخلاقه إلى مقاصد الله وغاياته به، فهو الحفاظ على اللغة العربية التي تستبقي للعرب مركز الإشعاع الإسلامي لغة ودينًا، وتاريخًا وموقعًا، وأسوة بين المسلمين في العالم..»

«وكان أول ما اتجه إليه الاستعمار هو التذرع بتنشيط حركة الإرساليات التبشيرية التي دفع بها إلى قلب العالم الإسلامي وهو الوطن العربي، لتهيئ جميع الوسائل التي تشغل المسلمين به عن دينهم، وعن عمود هذا الدين في منارته المستمرة والمتجددة وهو القرآن الكريم، وكان شعارهم في ذلك ما رفعه أحد غلاة المستشرقين تعبيرًا عن الهدف العدواني القديم في أوربا تجاه الوطن العربي وخبراته وموقعه، وذلك حيث يقول وليم جيفور دبلجراف: «متى توارى القرآن الكريم ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»!!..»

«وفي هذا الاتجاه الخفي والظاهر للقضاء على مقومات الوجود بالإسلام بين المسلمين، وفي مقدمتها اللغة العربية الفصحى، الحافظة للطرق المفتوحة إلى القرآن الكريم، والتراث، والشخصية التاريخية والحضارية للمسلم – عقد الاستعمار جملة مؤتمرات لتجديد الخطط الموضوعة نحو هذا الاتجاه، فمن ذلك المؤتمر الاستعماري المنعقد في أدنبرج عام 1910 والذي جاء في قراراته ما يأتي:

«إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة. والمؤتمر الاستعماري مع اعترافه بضرورة المحافظة على

مظاهر الحياد في الشئون الدينية فإنه يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام»..

«ولقد أخذت المدارس التبشيرية تنتشر في ظل الرعاية الاستعمارية في طول العالم الإسلامي وعرضه، وبخاصة في الوطن العربي، حيث كانت المدارس تدرس كافة العلوم باللغات الأجنبية، ومن وجهة نظر مسيحية غربية، مما عمل على تنشئة أجيال مقطوعة الصلة بتراثها العربي الإسلامي، وبلغتها العربية. وكان من الطبيعي تحت سلطة ونفوذ الاستعمار في البلاد أن يصل عدد من خريجي هذه المدارس إلى المواقع القيادية التي يتاح لهم منها تنشيط الاتجاه إلى الانفصال عن كل المقومات والروابط العربية الإسلامية في حياة الأجيال المغتربة عن ذاتها العربية، وحقيقتها الإسلامية، وبذلك يمكن تفكيك شخصيتها، ودفعها للضياع في تيار التبعية للغرب».

الدعوة للعامية:

ثم يشير الدكتور محمد رشاد خليل إلى تلك الحملات الاستعمارية النشطة بالدعوة إلى العامية فيقول:

«ومن هذا النفير الاستعماري بإعلان الحرب على العربية، والتهوين من أمرها، واختلاق التهم لها – انطلقت الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية، والدعوة إلى إحلال العاميات في كل الأقطار العربية محل الفصحى، والدعوة إلى دراسة اللهجات العامية وما كتب فيها من الآثار والآداب مما يسمونه «الأدب الشعبي»، وكذلك الدعوة إلى تطوير الدراسات اللغوية العربية بحيث تتمشى مع الدراسات اللغوية عند الغرب، وذلك بإدخال علم اللغة العام بالمفهوم الأوربي في مناهج الدراسة في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب، وفي كلية دار العلوم، وفي كلية اللغة

العربية بالأزهر، كما تمضي هذه الدعوة إلى إدخال الدراسات الصوتية التي يسميها الغربيون «فونكس» وهي فرع من دراسات علم اللغة العام عندهم..»

«ولقد خرجت الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى من حيز الترويج إلى حيز التطبيق على صورتين:

الأولى – صورة ثقافية إعلامية تقوم بها أجهزة الثقافة والإعلام في كافة الأقطار العربية، وذلك عن طريق المسرح والسينما، والراديو والتليفزيون، وهي أدوات هائلة التأثير على الجماهير العريضة غير المحصنة بمقومات شخصيتها العربية الإسلامية، والتي تستهويها المؤثرات السمعية والبصرية فلا تملك وعي المخاطر التي تتعرض لها لغتها العربية الصحيحة..

الثانية – صورة تعليمية دولية تشرف عليها منظمة اليونسكو، ومؤسسة فورد الصهيونية، ومؤسسة فرنكلين، والجامعات الأمريكية، وهي بكل نشاطها العلني والخفي تهدف إلى إحلال النموذج الأمريكي للحضارة الأوربية العلمانية فوق أرض الوطن العربي محل ما يمكن أن يقيمه العرب في صحوتهم المعاصرة من كيانهم العربي الإسلامي، اعتمادًا على مصادرهم الحية والباقية في القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث والتاريخ..»

رسالة الأزهر:

ويمضي الدكتور محمد رشاد خليل في تعقب جذور هذه المشكلة في تدهور اللغة العربية في ألسنة المتكلمين بها برغم المصادر الباقية والحافظة لها، فيذكر بالتفاؤل قوة صمود اللغة العربية لأعدائها ويقول:

«إننا ونحن نرى مع الأسى الشديد تزايد هذه المخاطر على اللغة العربية، حتى بعد عصر التحرر، والجهاد المتواصل لاستكمال تحرير الأرض، وحريات المجتمع في الوطن العربي، لا ندع سبيلًا لعوامل اليأس، بل إننا إلى التفاؤل أقرب، وفي مجال هذا التفاؤل نذكر اليوم مصير تلك الدعوة التي هزت مصر في العشرينات من الدهشة والاستنكار عندما بدأ «طه حسين» يردد في كتبه وخطبه هذه الاتجاهات الأوربية لفصل اللغة العربية عن رسالتها الدينية والدنيوية في نفس الوقت، وإخضاعها لأهواء دعاة السوقية والعامية في لغة الكتابة والأدب والعلم.. ونتساءل أين ذهبت هذه الدعوة التي ظن البعض يومها أنها هي الضربة القاضية على لغة القرآن الكريم.. وكيف أصبحت حال الأمة العربية وهي تتطور من الخمسينات حتى السبعينات، مع تعاظم رسالة اللغة العربية الفصحى في الربط الثقافي والسياسي والاقتصادي للشعوب العربية، فوق عوائق وحدتها، وباتجاه تنشيط مقوماتها؟

«ولقد كان ذلك الداعية كثير الاغترار بمصير دعوته، وهو متربع على مقعده في الجامعة، وفي وزارة التعليم، حيث بلغت جرأته على الحق أن يكتب في أحد كتبه فيقول في هجومه على اللغة العربية، وعلى من سماهم رجال الدين وهم علماء الدين:

«الذين يزعمون أننا نتعلم اللغة العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية، إنما يخدعون الناس. إن اللغة العربية ليست ملكًا لرجال الدين، يؤمنون وحدهم بها، ويقومون وحدهم من دونها، ويتصرفون وحدهم فيها، لكنها ملك الذين يتكلمونها جميعًا من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي

تبيح له هذا التصرف. وإذن فمن السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر والأزهريين وعلى المدارس التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعًا، وفيهم المسلم وغير المسلم..»!!

«والغرض الذي كان يرمي إليه صاحب هذا الكلام هو أن ينزع عن العربية قداستها التي صارت لها بنزول القرآن الكريم على لسانها، وأن يحرمها من حماية الدين وحصانته، وذلك حتى تتكشف لكل أعدائها فيتيسر لهم الإجهاز عليها بعد تجريدها من كل نصير وغيور، وهم الذين لا يزالون الطليعة من علماء الدين، ومن الغيورين المؤمنين من علماء اللغة، ومع ذلك فإنه برغم كل الطنين والدوى لهذه الدعوة الجائرة فقد بقيت اللغة العربية في ألسنة أهلها تزداد شبابًا ولا تكتهل أبدًا، وهي تمضي ثابتة الخطى في التعبير عن تقدم العرب دون أن تتراجع، وأمامها الكثير لتقدمه لهذه الأمة في عزمها على تقنين الشريعة، وتعريب لغة العلم، وبناء مجتمع المؤمنين..»

«لا شك أن رسالة الأزهر، وعلماء الدين تتسع بطبيعتها مع الحاجة إلى دعم وحدة التعليم الديني والمدني في كل المراحل، لمواجهة هذه الابتداعات من حيث أن علماء الدين بالأزهر، ومن شيوخ الكليات الدينية واللغوية المتخصصة، هم القيادة الواعية ضد مخاطر البدع القديمة والمستحدثة على عقائد المسلمين، وعلى التكوين السليم لأجيالهم الذين سيناط بهم – على خط التحرير والتنوير والتقدم للوطن العربي والعالم الإسلامي – أشرف وأخطر الغايات التي يعمل لتحقيقها المسلمون في هذا

العصر، وهي جميعها كما يعلمون «بدع مستوردة» من خصوم العرب والإسلام..»

الأجيال الجديدة:

ثم يتحدث الدكتور محمد رشاد خليل عن تحصين الأجيال الجديدة منذ طفولتها الغضة من خطر هذا السيل من العامية واللغة السوقية في كتبهم، والعودة بهم وهم أمل مصر إلى منابع الفصحى في كتاب الله كما عاش بها أسلافهم على هذه الأرض الطيبة فيقول:

«وعندما نتتبع مناهج التعليم المعاصرة، والتي ابتعدت عن أن تجعل من القرآن الكريم مصدرًا للتربية في مراحل الإعداد الأولى لتعليم الأطفال، نجد من ذلك كتب «القراءة الجديدة» المتداولة في مصر، والتي تصدر في مناخ هذا الابتداع الذي يراد به ترويج البدائل العامية لمنع ازدهار اللغة العربية الفصحى، مستندة بكل كمالها وتراثها وحيويتها إلى القرآن الكريم..»

«ففي هذه الكتب التي يتزعزع بها الأساس الفطري في وعي أطفالنا للتعبير بالفصحى تظهر محاولات من يصدرونها لتبرير أسلوبهم الغريب الذي لا يمكن وصفه بأنه عربي، وذلك مثل زعمهم أن الكلمات المسجلة في هذه الكتب والتي تبدو أنها عامية مصرية، لها أصل تنتهي به في معاجم اللغة إلى إحدى لهجات العرب، هذا برغم وضوح أنها تتجنب عامدة هذا الفصيح الذي أجمع عليه العرب، وأنها تتعمد أن تجعل من هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها لغة مقررة، مع أنها ليست عامة في بلاد

العرب كما يعم الفصيح المجمع عليه، وكما أن المستعمل منها في بعض الأقطار العربية لا يجري في عامية هذه الأقطار إلا على معنى آخر غير المستعمل في مصر، وبذلك تنمو وتتأكد هذه القطيعة اللغوية بين الشعوب العربية على فرض نجاح مثل هذه الكتب في عزل الأجيال الجديدة عن طريق الوحدة الحتمي بين العرب، وذلك بعزلهم منذ الطفولة عن منابع الفصحى التي لا تتحقق بغيرها هذه الوحدة بكل دلالاتها على إمكان إقامة الكيان العربي الإسلامي المتماسك، فوق هذه الأرض الطيبة، مهد الدين، ومهد الحضارات، التي يدور عليها، ويحاصرها في هذا العصر، إعصار هذا الصراع المذهبي بين الدول الكبرى تحت شعارات وخطط الشيوعية والصهيونية والاستعمار..».

الجهاد بالقرآن:

ثم ينتهي الدكتور محمد رشاد خليل أخيرًا إلى منارة الأمل المتجدد في حفظ اللغة العربية، وإحياء الفصيح من لسانها، وتحقيق وحدة الأمة العربية على طريق تجددها وازدهارها، وهو القرآن الكريم، فيقول من الدعوة إلى الجهاد به، والجهاد عنه:

«وأخيرًا.. كما هو أولًا.. يبقى بعد كل هذه المخاطر والمخططات، وبرغم كل هذه المخاطر والمخططات – هذا الكتاب الكريم، والقرآن الكريم، لكي تتضافر جهودنا – كما أمرنا الله – على الجهاد به، والانطلاق منه، في دعم اللغة العربية، لتنشأ عليها بحفظ آياته هذه الطفولة الصحيحة الناضرة، غير المعوقة، ولتنمو الأجيال العربية المؤمنة على أساس هذه النشأة الصحيحة منذ الطفولة نموها الحضاري، والثقافي،

والعصري، بالإسلام السمح، ومنهج القرآن الجلي، من غير عقد، أو متاهات، أو متشابهات..».

«ومن البداية يجب أن نقرر أن التخطيط المعادي يجب أن نواجهه بتخطيط وطني قومي، وأن العمل الجماعي يجب أن يواجه بعمل جماعي، تتضافر به الجهود الواعية من أبناء هذه الأمة – شعبًا ودولة لتحقيق أهدافها التي تؤمن بقدسيتها، مع السعي المتواصل من الجميع بإيقاع يجمع بين الصدق والعلم والتعاون، من أجل بلوغ هذه الأهداف مهما كان الجهد، ومهما كان الثمن، ومهما طال الزمن...».

الفصل الرابع

مشكلة إعداد معلمي اللغة العربية

ومدى العقم في طرقها ومناهجها إلى اليوم

ونمضي في هذا الفصل فننقل مقتطفات أخرى متكاملة الدلالة حول اللغة العربية الفصحى، والوسائل الجادة، والطرق المفتوحة، لإحيائها والنهوض بها، من دراسة للدكتور السيد رزق الطويل المدرس بجامعة الأزهر، ورئيس جمعية دعوة الحق السلفية الإسلامية، نشرها في الجزء السادس من نفس المصدر السابق، أي من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» والذي صدر سنة 1398 هجرية وسنة 1978 ميلادية.

بين الأزهر والجامعة:

يستهل الدكتور رزق الطويل نظرته إلى منطلق الإحياء والإنهاض للعربية الفصحى من مناراتها الطبيعية في الأزهر والجامعة فيقول:

«منذ قرون طويلة كان الأزهر في مصر قائمًا على أمر اللغة العربية، والدراسات الإسلامية، وظل له هذا السلطان، بل إن سلطانه قد تأكد في عصور سيطر فيها الضعف والتخلف على مصر والوطن العربي، حيث لم يبق من منارة للعلم والثقافة العربية الإسلامية في هذا الوطن الكبير إلا حيث الأزهر في مصر، وحيث تتناثر بعض المساجد التي تواصل رسالة التعليم الإسلامي، مع بعض الكتاتيب المنبثة في القرى والمدن تجاهد بتحفيظ القرآن الكريم..

«ولقد استمر ذلك الظلام الكثيف عدة قرون هي جانب من عصر المماليك، مع عصر العثمانيين بأكمله..

«وهذا الأثر العلمي الذي كان للأزهر في هذه الفترة وإن كان ضئيلًا إلا أنه وسط تلك الظلمات المطبقة كان علامة حياة، وإصرار على الحياة. فلقد استطاع برغم كل شيء أن يحتفظ بقدرة اللغة العربية على البقاء، وأن يحافظ على القرآن الكريم مصدرًا لبقائها، ونورًا لشعلتها، التي ظلت

بجهد الأزهر في تلك القرون العصيبة مضيئة، وإن لم تكن واسعة الإشراق والإشعاع..

«وفي بداية القرن التاسع عشر ظهرت بوادر جديدة في صورة حركة تعليمية واسعة نبتت في الأزهر أيضًا، وكان باعثها محمد علي الذي لم يكن يقصد تعزيز حق العرب في العلم والتعلم، بقدر ما كان يقصد إلى بناء جيش من أبناء مصر العربية يحقق به طموحه وأطماعه، فكان لزامًا أن يبعث بنهضة تعليمية استفادت منها اللغة العربية طوال حركة بناء الجيش..

«ثم تأسست دار العلوم في عهد إسماعيل، وقام عليها علي مبارك، الذي عزز بمناهج هذه الدار رسالة الأزهر اللغوية والإسلامية، مع توسعه في تغذية منابع تعليم اللغة العربية، والتمكين من تذوقها، والكشف عن خصائص بلاغتها، في منهجه لإعداد المدرس الصالح لها، وذلك بالعناية التي وجهها إلى الدراسة الأدبية والنقدية، وبهذا الأساس الذي أرساه بزيادة الاهتمام بدراسة الشعر العربي القديم قبل الإسلام، مع متابعة الحديث عن أدب العصر لمناقشته والحكم عليه..

«وفي أوائل القرن العشرين، ومع احتدام المواجهة مع الفصائل التي جندها الاستعمار لتقويض مقومات اللغة والدين والانتماء القومي العربي، كان الأزهر ودار العلوم قد أنضجا معًا بثقافة عربية إسلامية أساسها المتين هو القرآن الكريم – عددًا وافرًا من المفكرين، والأدباء، والصحفيين، الذين كان أثرهم واضحًا في الانتصار لهذه المقومات، في حركة فكرية غنية بالمؤلفات الجديدة، والحوارات البليغة، تم بها الصمود والردع لأصحاب هذه التيارات المستهجنة، التي استهدفت – على طبيعة الاستعمار – أن تقضي على اللغة العربية..

«ثم أنشئ قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وكانت رسالته – وقد أنشئ ردًا على هزيمة التيارات الوافدة في المرحلة السابقة – أن يكون مركزًا لتخريج أجيال جديدة من معلمي اللغة العربية، تتجه بأفكارها تحت شعار «حرية الجامعة» إلى الإشادة بأقوال المستشرقين المعادية لتراثنا، مع قلة اكتراث بدراسة النحو. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الطالب بهذا القسم ليس له نصيب من حفظ القرآن الكريم، كان معنى ذلك أن خريج هذا القسم يتم إعداده باتجاه ومحتوى غربي في فهم اللغة العربية التي لا يحسن الأداء الصوتي للسانها، بينما هو في ظاهره دارس «متخصص» في اللغة العربية..!

«ومن المؤسف حقًا أن يكون قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعات هو القدوة التي انتزعت إلى محاكاتها مناهج كلية اللغة العربية بالأزهر، ومناهج كلية دار العلوم. فالجميع في هذا العصر لا نكاد نجد بينهم من يحفظ القرآن الكريم، وتلك ولا شك قاصمة الظهر لكل دارس للغة العربية..

«إن الطالب في معاهد اللغة العربية على تنوعها يتشابه مع أخيه في أنه يدرس علومًا شتى: لغوية وغير لغوية، ثم هو يتخرج بأمشاج من الثقافات المتباينة حول إلمام هزيل وضئيل بلغته العربية التي يراد إعداده ليكون مدرسًا وأستاذًا لها. أما نطقه لهذه اللغة فهو أكثر ضآلة وهزالًا. وهكذا فإن حال الخريجين من هذه المعاهد والكليات المتخصصة في إعداد معلم اللغة العربية هو في حد ذاته شاهد أمين على عقم المناهج وطرق الإعداد النفسي والتربوي والعلمي بهذه المعاهد..

«بل إننا نجد أحيانًا ما هو أغرب من ذلك في أحوال من يتقدمون لنيل الإجازات العليا في اللغة العربية، ورسائلهم كما هو المفروض فيها هي قمة

التخصص، وذلك حين نجدهم أمام لجان المناقشة لرسائلهم يتحدثون بالعامية، أو هم يهربون إليها أحيانًا، كما نسمع منهم في لحظات التزامهم بالفصحى ألوانًا اللحن يتنزه عنها الدارس المبتدئ، فضلًا عن الباحث المنتهي..!

«إن الأمر ولا شك بكل هذه الظواهر من العقم، والتجمد، والتخلف، في طرق ومناهج تعليم اللغة العربية بجميع مراحل التعليم، يحتاج إلى إصلاح جذري، فضلًا عن ضرورة ملء الفراغ الذي كانت تشغل به «كتاتيب» حفظ القرآن الكريم أعوام الطفولة حتى السنة السادسة، وذلك بتعميم نظام الحضانات التي تؤسس عليها الدولة كل مراحل التعليم، والتي يقوى فيها الأساس الديني واللغوي بتحفيظ القرآن الكريم، ابتداء من تعليم القراءة والكتابة خلال حفظ السور الأولى منه، أساسًا لبناء صرح التعليم كله بناء سليمًا من فوقه.. أي ابتداء من هذه الحضانات القرآنية المتسقة مع العصر، وحتى كليات الأزهر والجامعة، مرورًا بكل فروع ومستويات التعليم..».

العودة للقرآن:

ويمضي الشيخ الدكتور رزق الطويل في دراسته القيمة لحل المشكلة الرئيسية في إحياء الفصحى ونشرها وهي هذه الطرق المحكومة بالعقم والتجمد والتخلف في مناهج إعداد معلمي اللغة العربية فيما بين الأزهر والجامعة فيقول من مقترحاته العملية لمواجهة وإصلاح أسباب العقم والتخلف:

«وعلى ضوء ما قدمت من العيوب والآفات الظاهرة في مناهج إعداد معلمي اللغة العربية، أطرح فيما يلي أهم المقترحات التي أرى أن في الأخذ بها تخلصًا من هذه العيوب، وتثبيتًا للمناهج والطرق التربوية الراشدة التي

تتدعم بها حركة إحياء اللغة العربية الفصحى في حياة شعبنا المصري العربي، المجاهد عن ذاته، ومعتقداته، وآماله..

«والبداية هي العودة الجادة إلى تحفيظ القرآن الكريم في المرحلة الأولى قبل الابتدائي، والتي يجب أن تعمر بها سنوات الطفل التشكيلية الأولى بالتكوين القرآني المباشر لنطقه الحروف والكلمات والجمل، وذلك بأن تتقرر في نظام تطوير التعليم عودة مكاتب تحفيظ القرآن، أو «الحضانات» بمفهومها الإسلامي في التكوين السليم للمرحلة الأولى من حياة الطفل..

«فإذا ما بدا لنا من المعوقات أننا قد لا نجد المعلم الذي يستطيع الإلقاء الصحيح لآيات الله على الأطفال في هذه المرحلة الأولى قبل الابتدائي، أي بهذا الإلقاء الصحيح للحروف ومخارجها بالقدر الذي نعول عليه في نجاح هذه المرحلة، كان من الممكن تجاوز هذا العائق من طريق الاستعانة بالأشرطة المسجلة للمصحف المرتل، وذلك بأن يقوم المدرس – بعد دورة تدريبية – بإسماع الأطفال مرة بعد أخرى هذا القدر من الآيات التي يريد لهم أن يحفظوها حفظًا سليمًا، إلى أن يتم مع الجهد الصادق إعداد هذا الجيل المنتظر من الحافظين المجودين للقرآن الكريم للإشراف السليم على هذه الحضانات القرآنية كما نتصور قيامها وتعميمها إن شاء الله..

«ومن ثم فإن العناية باستمرار تحفيظ القرآن الكريم في المراحل التالية من الابتدائي حتى الإعدادي وإلى الثانوي يجب أن تستمر في التصاعد لتحقيق الغاية منها في سلامة التكوين اللغوي، والوعي الديني، والانتماء القومي، في حياة هذه الأجيال التي نحمل أمانة إعدادها لمهام وآمال المستقبل، في وجه تحديات العصر، ونحو المنشود والمشروع من هذه

الآمال الكبيرة باتساع الوطن العربي، والعالم الإسلامي، ومع المعاصرة بالتقدم والسلام باتجاه جميع شعوب العالم..

«هذا ولابد في مجال العودة المقررة إلى تحفيظ القرآن الكريم – من أن يعود الأزهر الحديث فيستمسك استمساكه الجاد السابق بتطبيق الشرط القديم، وهو ألا يدخل المرحلة الإعدادية للأزهر إلا من يحفظ القرآن الكريم حفظًا كاملًا، وعلى أن يعفي هؤلاء الحفاظ للقرآن من شرط المجموع في المرحلتين الإعدادية والثانوية».

«كذلك لابد للمعاهد التي تقوم بالدراسة اللغوية المتخصصة لتخريج مدرسين متخصصين في اللغة العربية، وذلك في كلية دار العلوم، أو في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب بالجامعة، ألا تقبل بين طلابها من لا يحفظ القرآن الكريم..

«ولكي نوفر المناخ اللغوي السليم عن طريق الإكثار من عدد الحافظين للقرآن الكريم فإن علينا أن نقدم لشبابنا الحافز على هذا الحفظ، وذلك بأن نعطي طالب الثانوية العامة حق زيادة 10٪ من مجموع الدرجات التي يحصل عليها عند النجاح إذا ما تحقق له شرط حفظ القرآن الكريم، ولا غرابة في ذلك ونحن نقدم مثل هذا الحافز في حالات البطولة الرياضية ونحوها...»

ونكتفي بهذا القدر من الاستشهاد بأقوال الدكتور السيد رزق الطويل في هذه الدراسة المتميزة بالخبرة والممارسة لعالم لغة معاصر، وداعية إلى الإسلام يشعر في ممارسته للدعوة بهول هذا الفراغ في ميادين الدعوة المفتوحة من الأثر الفعال لهذه اللغة الفصحى، المؤلفة للقلوب على الحق، والجامعة للعقول على العلم. ذلك أن فيما نقلناه من أقواله حول عقم مناهج وطرق الإعداد لمعلمي اللغة العربية، مع تضارب وجهات وأساليب

الأزهر والجامعة ودار العلوم حول ما كان ينبغي أن يكون متسقًا ومتناميًا من هذه الوحدة التربوية والنفسية والعلمية في مناهجها وصرفها.. إن فيما نقلناه من هذه الشهادة المثيرة لاهتمام جميع المسئولين عن هذه المنارات العلمية الكبرى في بلادنا ما يكفي لتأكيد صحة هذا الرباط الذي لا ينفصم في صحوة العقل العربي بين صحة التعبير باللسان العربي وسلامة التفكير بالمنهج الإسلامي.. هذا وإن كان الدكتور الطويل قد تناول من القضايا الهامة في مجال النهوض باللغة العربية – بعد الذي ذكرناه – كثيرًا مما نكتفي لقيمته بهذه الإشارة إليه مثل: الكتاب المدرسي – والمدارس الخاصة – وقواعد اللغة – وأجهزة الإعلام وظاهرة اللحن المقروء والمسموع والمرئي في نشاطها اليومي – والمجامع اللغوية وقصورها التقليدي..!.

الفصل الخامس

ومثال عندما ماتت الجزائر بقطع لسانها ثم عادت بالقرآن والتعريب إلى حياتها

وأخيرًا في مجال استشهادنا بأقوال ودراسات عدد من علماء اللغة المعاصرين على ارتباط الأمل المشرق بوحدة العرب، وقوتهم، وتقدمهم، في هذا العالم المتفجر بالأطماع والصراعات من حولهم، ننقل من نفس المصدر، أي من الجزء السادس من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» الذي تصدره خاصًا بالعاملين بها، وتحصينًا لهم من الأفكار الانحلالية أو الإلحادية الوافدة – شركة المقاولين العرب بالقاهرة.. ننقل هذه الفقرات من الدراسة التي سجلها الدكتور يوسف حسن نوفل مدرس الدراسات الأدبية بكلية البنات بجامعة عين شمس، حول هذه العظة الحية التي لا تزال ماثلة لنا على أرض الجزائر، في مأساة شعبها عندما قطعت فرنسا لسانه العربي بكل قسوة بعد استعماره، ثم في الكفاح المتواصل لهذا الشعب حتى اليوم ليستعيد بالقرآن الكريم، حياته بالتعريب، بعد أن فقدها وفقد حريته بالاغتراب والتغريب..

استعمار الأرض واللغة:

يبدأ الدكتور يوسف نوفل هذه الدراسة اللغوية العلمية التاريخية وهو يجمع شواهدها الأليمة من مأساة الجزائر تحت الحكم الاستعماري الجائر لفرنسا فيقول:

«حرص الاستعمار الفرنسي للجزائر منذ احتلالها المبكر سنة 1830 على محو السمات القومية والدينية للجزائريين، وفرض الاستعمار لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال أفريقية. وحيث يأتي واحد مثل «لويس ماسينيون» فيصور للجزائريين أن الحلاج الذي ادعى الألوهية على أنه صورة من المسيح عليه السلام، وما كان ذلك إلا لإحداث الفرقة بين المسلمين في الجزائر، وتوهين اعتقادهم في دينهم وتراثهم. وقد صحب ذلك

قضاء فرنسا على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، كما أغلقت نحو ألف مدرسة، مما حمل أحد الكتاب الفرنسيين وهو «بولار» على أن ينسب إلى فرنسا مسئولية تأخر الجزائر في القرن الحالي حيث يقول: «لقد أشاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية والأدبية في الجزائر اضطرابًا شديدًا فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين».

«وعملت فرنسا من أول الأمر على ألا تفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة تسخر بها التعليم لخدمتها، وقد وصف محمد فريد الوطني المصري ذلك في جريدة اللواء في 12 أكتوبر سنة 1901 قائلًا: «لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات، بل ربما لا تدرس اللغة العربية بالمرة حتى مع مضي الزمن..».

«وهذا ما حدث تمامًا، إذ قضت فرنسا على اللغة العربية، وعملت على «فرنسة» الجزائر لغة وحضارة، وفرضت حجابًا كثيفًا من الصمت عزلت وراءه الجزائر قرنًا كاملًا، وأضحت مأساة الغزو اللغوي، وضياع اللسان القومي مشكلة ذات أبعاد واضحة، وجوانب صعبة، وصار أدباء الجزائر يكتبون بالفرنسية من أمثال: محمد ديب، وكاتب يس، ومالك حداد، ومولود معمري، وآسيا جبار وغيرهم..!

«إن حرب الاستعمار الأوربي للسان العربي المرتبط بالقرآن الكريم قديمة، حتى لا تنهض بهذا اللسان نهضات إسلامية تسد الطريق على هذا الاستعمار. وهكذا نجد أنه عندما وطئت أقدام فرنسا أرض الجزائر لم يكن بها أحد يتكلم الفرنسية، ولكنها لم تلبث أن شرعت في الاتصال بالرأي العام باستئجار الأقلام المأجورة، ثم بدأت في برنامج المسخ والغزو ابتداء من فرنسة أجهزة الحكومة، ودوائر العمل، ثم فرنسة التعليم فرنسة

كاملة لم تترك اللغة العربية في المنهج الدراسي سوى ساعتين في الأسبوع خصصتا لتدريس «اللهجة العامية» بوصفها لغة ثانوية إضافية بعد الفرنسية، وكوسيلة أيضًا لمحاربة وإقصاء الفصحى لغة القرآن الكريم، والثقافة العربية الإسلامية..

«بهذا عملت فرنسا من أول عهد استعمارها على تحقيق هدفين كل منهما شر: الأول فرنسة أرض الجزائر، والآخر فرنسة سكانها بفرنسة لغتهم، مثلما فعلت إنجلترا بأستراليا ونيوزيلندة، ومثلما تشهد قطعة من وطننا المعذب وهي فلسطين حين تحاول الصهيونية أن تهودها وتمحو معالمها لغة، وأرضًا، وحضارة..!

«ولم يستسلم العرب الجزائريون إلى هذه الجرائم التي كان منها هدم المساجد، وإضعاف القضاء الشرعي، والاستيلاء على أموال الأوقاف، وتشجيع التبشير والتنصير، فقامت حركات عديدة للمقاومة كثورة الأمير عبد القادر الجزائري، ومالك بن بني، والإبراهيمي، ومحمد المقراني، وقامت جمعيات عديدة مثل جمعية نجم شمال أفريقية، ثم أسس مصالي الحاج «حزب الشعب الجزائري» إلى أن قامت الثورة الكبرى سنة 1945، وقامت حرب التحرير سنة 1954..».

جمعية العلماء:

ويمضي الدكتور يوسف نوفل في تتبع مراحل هذه المأساة الواعظة للأمة العربية على أرض الجزائر في صحوتها المعاصرة للجهاد عن لغتها، ودينها، ووحدتها، فيقول:

«وأسس علماء الدين جمعيتهم، وقد قام رائدها عبد الحميد بن باديس «سنة 1889 – 1940» بنشاط كبير في حركة الجهاد الوطني

واللغوي والديني، وكان من أبرز مواقفه في سنة 1930 – عندما أرادت فرنسا أن تحتفل بمرور مائة عام على احتلال الجزائر وإدماجها وفرنستها أنه وقف ينادي بعروبة الجزائر، ويعلن رفض الشعب الجزائري العربي أنه جزء من فرنسا، ويدافع عن العروبة والإسلام، كما كان هذا شأنه في خطبه، ورسائله، وندواته، ودروسه، ونثره، وشعره..

«ووضعت جمعية العلماء خطتها لنشر التعليم العربي الإسلامي في المدن والقرى، وذلك في مرحلتين: مرحلة شملت المدارس التي عدها الاستعمار غريبة وهي في وطنها، والمرحلة الثانية منه سنة 1947 عندما تم إنشاء معهد علمي يجمع أبناء الجزائر الذين كانوا يشدون الرحال إلى جامعة القرويين في فاس، أو الزيتونة في تونس..

«ولقد قاومت فرنسا بشدة نشاط ابن باديس، كما قاومت جماعته في جمعية العلماء، ولكن ابن باديس لم يلن، ومضى يستحث الجزائريين ليثبتوا على مقاومتهم، وعلى جهادهم لإجبار مقوماتهم، وهو يتحدث إلى العلماء في هذه الجمعية بقوله: «إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام، ولغة الإسلام، في هذه الديار». وقوله «لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة في سبيل الإسلام، والعربية لغة الإسلام، في دائرة القانون العام، وإن لحقها في ذلك كل ظلم وعدوان»..!

اللغة العربية والقومية:

ويصل الدكتور يوسف نوفل في حديثه عن مأساة الجزائر التي تمثلت في فقد لسانها العربي، وفي جهادها برغم الغربة والشتات لاسترجاعه، واسترجاع حريتها وحياتها به – أنه يصل إلى رواسب وبقايا هذه المعاناة الطويلة للتخلص من أهوال الفرنسة، ومخاطر الدمج للأرض واللغة،

والضياع للتراث والذات والهوية، وهو يتحدث عن أثر المفهوم المتميز للقومية العربية، وخصائصها اللغوية والدينية، في احتمالات النجاح والتوفيق في علاج الأزمة اللغوية المعاصرة في الجزائر، وتيسير استكمالها لخطط وأهداف التعريب الشامل والنشط لغويًا، ودينيًا، وقوميًا، للشعب الجزائري.. وذلك حيث يقول:

«وبمناسبة مأساة الجزائر اللغوية، والتي استهدفت القضاء على انتمائها القومي، نقول إننا نعبر أحيانًا عن القومية العربية بالعروبة، وذلك لاستناد هذه القومية إلى اللغة هذا الاستناد الذي لا يقل عن استنادها إلى العوامل الأخرى مثل الأرض، والجنس، والعقيدة، والتاريخ، إذ ترجع مكانة اللغة العربية عند العربي إلى عصر ما قبل الإسلام، وحيث مثلت اللغة مظهرًا من مظاهر الوحدة التي تمثلت في هذه اللغة المشتركة بين القبائل بلهجاتها المتعددة، وحين نزل القرآن الكريم بلسان هذه اللغة الموحدة رسخت أقدامها، وصارت لها منزلتها في بناء صرح الروابط العربية القومية..

«ومن هنا فإن القومية العربية التي احتفظت بمظاهرها الحية الوضاءة منذ فجر التاريخ تمتاز على جميع القوميات الحديثة التي ظهرت أخيرًا في عصر القوميات الأوربية منذ بداية القرن التاسع عشر، والتي دارت حول نظريات: اللغة، أو المصالح المشتركة، أو التاريخ والعادات، أو الوحدة الاقتصادية. إنها تمتاز بكل هذه الروابط والأواصر مجتمعة ومتسقة في لغتها المعبرة لقومها عن الديني والدنيوي في شريعة لا تتبدل، ونظام أخلاقي لا يتغير..

«وهكذا فإن علاج الأزمة اللغوية في الجزائر يرتبط ارتباطًا كبيرًا بصحوة هذه القومية التي تربط الجزائريين بوطنهم الأم، وبلغتهم الفصحى

بهذا الوطن، وبكتاب الله المحفوظ الذي نزل بهذه اللغة. فكما تفوقت العربية قديمًا على اللغات التي واجهتها بعد الإسلام على أرض الوطن العربي، من فارسية، ويونانية، ورومية، فإن اللسان العربي لشعب الجزائر لن يعود فيقوى عوده، وتخضر أغصانه، إلا بقوة هذا الرباط القومي والديني، وبهذه الصحوة، إلى الوحدة اللغوية العربية كما تنبه إليها قوة الانتماء القومي العربي..

«وهكذا فإنه إذا كان عدد من ألمع أدباء الجزائر القدامى قد كتبوا وأنتجوا باللغة الفرنسية، فإن على الأدباء المعاصرين بالجزائر أن يتوجهوا بنشاطهم الأدبي وجهة قومية من خلال صحوته الفكرية واللغوية، والدينية والإنسانية. ذلك أنه إذا كان الأدب بمستوياته المختلفة قد رافق معارك القومية العربية منذ اقدم العصور، فإن على الأدب الجزائري المعاصر أن يقدر مسئوليته الوطنية فلا يقتصر على تحقيق ملامحه العربية لنفسه فحسب، بل عليه أن يحققها فيما حوله، وفيمن حوله. وإذا كان الأدب الجزائري قد استطاع أن يعبر عن آمال شعبه في مرحلة مأساته الوطنية واللغوية الماضية، بلغة فرنسية – داخل الجزائر وخارجها، بل داخل فرنسا أيضًا، فليس صعبًا عليه أن ينشط لأداء رسالته في هذا العصر، بلسان عربي فصيح، داخل وطنه الجزائر، نشدانا للنجاح الكامل لمراحل وخطط التعريب، ومشاركة فعالة بهذا الأدب الفصيح في البناء الثقافي والحضاري الوطني. ثم مشاركة أوسع بهذا الأدب الحي باللغة الفصحى، المفهومة في كل الشعوب العربية، في هذه المعركة القومية، والحضارية، التي تخوضها الأمة العربية بكل شعوبها أمام تحديات هذا العصر بين أن تكون.. أو لا تكون..!.

«ولئن كانت سمات ومعالم نجاح «التعرب» و «التعريب» قد أخذت تظهر في الجزائر منذ سنة 1968 عندما تقرر إبعاد أي موظف أو عامل لا يعرف العربية، فإن المزيد من التعرب، وتحفيظ القرآن الكريم، ونشر العدد الكافي من المدارس لتعليم اللغة العربية، ومدارس إعداد المعلمين لهذه اللغة بمناهج وطرق تربوية سليمة، لا يزال مطلوبًا، بعد أن أخذت الميادين والطرق والشوارع تحمل أسماءها العربية، وبعد أن ترجمت أكثر لافتات المتاجر إلى العربية..

«وإذن.. وبعد أن تجاوزت الجزائر مأساتها خلال قرن وربع القرن، وانتقلت إلى مرحلة من كفاحها أكثر أمنًا وأوسع أملًا، وذلك على الرغم ممن تخاذل من أبنائها عن نصرة لغته ودينه، أو تواطأ مع المستعمر، أو وقف موقفاً سلبيًا منه. فإن كل هذا الذي وقع أمام أعيننا لشعب شقيق، وقد كنا في مصر أكثر أشقائه قربًا إليه، ومشاركة له، وحدبًا عليه – إنما يقدم لنا ولكل الشعوب العربية ما لا ينبغي أن نغفل عنه من العبرة والعظة التي يزداد معها الحذر في مقاومة مثل هذا الخطر.. خطر موت اللغة.. وموت العقيدة بموت اللغة، وموت الحرية بموت العقيدة..!

«وبكل الوضوح.. لعل ما وقع من مأساة فرنسة الجزائر بالأمس، والتي لا تزال تجر آخر ذيولها إلى اليوم من بقايا مشكلات التعرب والتعريب – أن يكون للأمة العربية كلها عظة وذكرى تنفع المؤمنين، وتذكر الغافلين، بكل هذه المخاطر المحدقة التي لا تزال – تحت مسميات جديدة للعدوان من الشرق والغرب – تهدد بقايا العرب على أرضهم، هذا البقاء الحر العزيز، الذي يحملون به بكل أصالتهم، ومقوماتهم، أمانة المشاركة في آمال العصر وهم يحققون بألفة قلوبهم، ووحدة شعوبهم،

وقـوة إيمـانهم، وفصـحى لسـانهم، نعمـة التقـدم، ونعمـة الرخـاء، ونعمـة السـلام..»

وعند هـذا القـدر مـن البيـان والحجـة، ومـن التذكير والتنـوير، أصل بهـذا الكتـاب إلى غايتـه، مبتغيًـا وجـه الله، وهـذه المـودة في القربـى إليـه.. وسـلام على من اهتدينا بدعوتهم من المرسلين، والحمد لله رب العالمين؟